

مأثور الكلام العربي

في كتاب : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسماة : (تاريخ المستبصر)
لابن المجاور البغدادي النيسابوري المتوفى بعد عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م

أ. د. محمد كريم إبراهيم الشمري
عميد كلية الآداب / جامعة القادسية

الخلاصة:

يركز البحث على دراسة جانب تراثي مهم يخلد مأثور الكلام العربي في كتاب مهم جداً يتميز بثروة علمية متنوعة : لغوية وأدبية واقتصادية واجتماعية ، وقد أوضح الباحث أهمية هذا الكتاب ومضامينه العلمية، وابرز البحوث التي أنجزها من خلاله.
في هذا البحث تركيز على محورين ، الأول شذرات من الكلام العربي المأثور احتوى على أمثلة من مأثور كلام العرب البليغ وما فيه من الحكمة والعبر والدروس ، من خلال أقوال ترتبط بمناسبات متنوعة من قصص وحكايات ومواقف تجسد شواهد من تاريخ وتراث العرب الخالد .
أما المحور الثاني فيتعلق بالأمثال والحكم والعبر على هيئة أقوال مأثورة ، مع بيان المناسبات التي أطلقت فيها هذه الأمثال والحكم العربية المأثورة ، مما يوضح أهمية هذا الكتاب من خلال النقاط الكلام العربي المأثور والموزع في ثنايا منته؛ لتوثيق جزء مهم من تراث العرب وتاريخهم الخالد .

المقدمة :

يزخر كتاب : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسمى : تاريخ المستبصر - المنسوب تأليفه خطأ الى جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي المتوفى عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م ، والمرجح أن مؤلفه الصحيح هو : أبو بكر بن محمد بن مسعود بن علي (المجاور) بن أحمد البغدادي النيسابوري المتوفى بعد عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م - بثروة علمية متنوعة : لغوية وأدبية واقتصادية واجتماعية ، تدل على ثقافته البارة وبعده نظره وطول باعه ، من خلال تنوع معلوماته وغازاتها وتنوعها إلى معلومات تاريخية وجغرافية وأثنوغرافية واقتصادية . فضلاً عن رصده لكثير من ظواهر الحياة في بلاد اليمن خصوصاً وبلاد الحجاز والديبول وجاوة وغيرها من البلدان التي زارها عموماً وسجل لنا ملاحظاته عنها ، وكان شاهد عيان مدققاً لكثير من شؤون الحياة . ونستدل من خلال ذلك أنه كان تاجراً يملك مركباً بحرياً ، طاف به كثيراً من البلدان وزودنا بمعلومات عنها ، وسجل لنا رواياته ومحدثيه وأماكن لقاءاته بهم في ثنايا كتابه .
أولينا هذا الكتاب عناية واهتماماً خاصاً ، منذ أن شمرنا لدراسة التاريخ السياسي والاقتصادي لمدينة عدن ومينائها ، في مرحلة الدكتوراه عام ١٩٧٩م ، وحتى الآن ، ووجهنا دعوة مخصصة صادقة إلى أبناء اليمن خصوصاً وغيرهم من المهتمين بتاريخ اليمن وتراثها عموماً من المؤرخين والمتقنين وهواة البحث العلمي ، الى إعادة تحقيق ونشر هذا الكتاب تحقيقاً علمياً رصيناً ، ودراسة مؤلفه الحقيقي وتثبيته على غلاف كتابه المطبوع ، وهو ابن المجاور البغدادي النيسابوري المذكور أعلاه في الأعم الأرجح .

اولاً- (شذرات من الكلام العربي المأثور):

يتوزع مأثور الكلام العربي في كتاب : صفة بلاد اليمن ... (تاريخ المستبصر) على صفحات قسميه المتسلسلة ، وما هي إلا شذرات من عقد طويل مليء بالجواهر يمتد في تاريخ وتراث العرب الطويل ، انتقينا ما توافر لنا منه في هذا السفر الجليل ، لإتحاف القارئ الكريم بشذور من كلام العرب المأثور ، نُجسد جزءاً من ماضيهم وتراثهم الخالد ، وفق فقرات متسلسلة وكالاتي:

(١)

القناعة غني وكنز لا ينفد

وصف ابن المجاور (١) أهل مكة بأنهم عرب وأشراف من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، وما بقي من أهلها قرشيين ، وهم رجال سُمُر، صحيحو اللغة ، قليلو المال ، كثيرو العشائر والقبائل ، ذوو قناعة ؛ فكان أحدهم يبقى على قرص (خبز) وقليل من سمن ثلاثة أيام بلياليها . واستشهد بقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : ((القناعة غني)) ، وقال عليه السلام : ((القناعة كنز لا ينفد)) .

(٢)

المؤمن كالنحلة لا تأكل إلا طيباً

حكى ابن المجاور (٢) خبر حرب رسول الله (صلعم) بني سليم ، وفتح جبالهم ، وكان لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) ، دورٌ فعّال ومتميز في تحقيق النصر على بني سليم وهزيمتهم ، فقد نادى النبي محمد (صلعم) قائلاً : اين يعسوب الدين ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : اين أمير النحل ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : اين علي بن أبي طالب ؟ فلما سمع علي بن أبي طالب (ع) جذب سيفه ذا الفقار وحمل على بني سليم . فلما تم الفتح واستقام النصر ، قال بعض الصحابة للنبي صلعم : ((يا رسول الله شبهت علي بن أبي طالب باليعسوب ، وهو النحلة ؛ فقال النبي صلعم : المؤمن كالنحلة لا تأكل إلا طيباً ولا يخرج منها إلا طيباً)). فمن ذلك الحين والواقعة لُقّب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بـ : يعسوب الدين أمير النحل .

(٣)

حاج العراق أبونا والسرو أمانا

تحت عنوان : (ذكر السرو) ، ذكر ابن المجاور (٣) أنهم قبائل وفخوذ من العرب ، لا يحكمهم سلطان ، بل مشائخ منهم وفيهم ؛ وهم بطون متفرقون . وغاية حج القوم عمرة أول رجب ، وقد ضمن لهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) تلك العمرة بحجة كاملة مقبولة ، فإذا دخلوا مكة ملأوها خبزاً من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيب وما يشابه ذلك ؛ لذلك يقول أهل مكة : ((حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب والسرو أمانا نكسب منهم القوت)) .

(٤)

مكة يمانية

تحدث ابن المجاور (٤) عن الحجاز وأسباب تسميته ، نقلاً عن الأصمعي ، وقال الخليل [بن أحمد الفراهيدي] : ((لانه فصل ما بين الغور والشام وبين البادية)) ، وقال الجوهرى : ((إنها حجزت بين نجد والغور)) ، وقال أهل اليمن : ((مكة يمانية)) (٥) ، والدليل على برهانه قول النبي صلعم لما وقف على المتكا وقال : ((هذا شأم وهذا يمن)) . وقال أهل الطائف : مكة تهامية ، وقال أهل العراق : مكة أرض الحجاز .

(٥)

جمال نساء الحُصَيِّب

في حديث ابن المجاور ^(٦) عن صفة زبيد ، ذكر أن النبي (صَلَّمَ) سماها : أرض الحُصَيِّب ؛ لأنه (صَلَّمَ) قال لمُعَاذ بن جبل : ((يا مُعَاذ إذا وصلتَ أرض الحُصَيِّب فهُرول ، فإن بها نساء يُشْبِهْنَ حُور العين)) .

(٦)

اليمن في أقوال النبي (صَلَّمَ)

وقال النبي (صَلَّمَ) : ((إني لأجدُ نَفْسَ الرحمن من قِبَلِ اليمن)) ، والمعنى في قوله لأويس القرني ^(٧) وكان يتنفس شوقاً إلى النبي (صَلَّمَ) ، ولأجل هذا أخبر النبي (صَلَّمَ) بهذا الخبر . وقال النبي (صَلَّمَ) : ((الكعبة يمانية والركن الأيمن يماني والإيمان يماني)) ^(٨) . وذكر النبي (صَلَّمَ) في معنى اليمن أخباراً كثيرة . ويقال : " سهيل اليمن وجَزَع وعقيق اليمن " ^(٩) .

(٧)

طبائع سُكَّانِ مَدِينَةِ زَبِيد

وصف ابن المجاور ^(١٠) أهل مدينة زبيد بأنهم سُمُرٌ كُحْلٌ كواسج ضِعَافُ التَّرْكِيبِ مُحَاقِي الرُّؤُوسِ وَمُقْصَرِينَ ، ونسأؤهم خَلَقَاتٍ وَهِنَ رِخْوَاتِ التِّكْكِ وَفِي كَلَامِهِمْ كَثْرُ غَنَجٍ ، وهذا دليل على أن شهوة نساءهم أغلب من شهوة رجالهم ^(١١) ؛ لذلك يستعملون الطيب لأنه يهيج الباه . قال عمر بن الخطاب (رضه) : ((لو كنت تاجرأ لما اخترتُ على العطر شيئاً إن فاتني ربحه لم يفتني ريحه)) .

وقال مكحول الشامي : ((عليكم بالطيب فانه من طاب ريحة زاد عقله ، ومن نطف ثوبه قلّ همة)) .

ونساء أهل هذه البلاد لا يأخذن من أزواجهن المهر ، لأن أخذ المهر عندهم عيب عظيم .

(٨)

الفرضة كالمحشر

قال ابن المجاور ^(١٢) : ((وخروج الإنسان من البحر كخروجه من القبر والفرضة ^(١٣) كالمحشر فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد ، فإن كان رابحاً طاب ^(١٤) قلبه وإن كان خاسراً اغتتم ، فإن سافر في البر فهو من أهل ذات اليمين وإن رجع في البحر فهو من أهل ذات الشمال . فإذا كان هذا حال المخلوق في عالم الكون والفساد مع مخلوق كذا فكيف حال المخلوق بين يدي الخالق غداً في هَوْلِ العَرْضِ الأَكْبَرِ اللهم لا تناقشنا يا كريم !)) .

ذكر ابن المجاور ^(١٥) من أسماء عدن : فرضة اليمن ^(١٦)

(٩)

الحياء من الإيمان

نقل ابن المجاور ^(١٧) هذا القول الجميل عن نبينا محمد صلعم ، وأضاف : ((وقال حكيم إذا لم تستحي (تستح) فاصنع ما شئت!!)) .

استشهد ابن المجاور بهذه الحكمة بعد حديثه عن وقاحة نساء البرابر وسوء أخلاقهن وتصرفاتهن ، إذ يقول : " فما رأيتُ أَوْقَحَ وَلَا أَوْسَخَ وَلَا أَقْلَ حَيَاءٍ مِنَ البرابر لا جزاهم الله عن الاسلام خيراً " ، ثم ذكر قول النبي صلعم والحكيم عن الحياء .

(١٠)

الحراف والحزن

تحدث ابن المجاور^(١٨) عن وصول المراكب إلى عدن ، وأوضحَ شدة التفتيش للرجال والنساء القادمين إليها من قبل مفتش الرجال وكذلك عجوز تفتش النساء بدقة ، وبعد ثلاثة أيام تنزل الأقمشة والبضائع إلى الفرضة تُحل شدةً شدةً وتُعد ثوباً ثوباً .
قال ابن المجاور : ((وحينئذٍ يظهر على التاجر الحراف^(١٩) ويقتله الحزن ويبقى في وادي الدبور بما يعملون معه من الفعل الذي يُطير منه البركة والسعادة)) .
يوضح لنا هذا النص شدة آلام التاجر ومعاناته ، فيصبح شخصاً يائساً من حياته ، منقوص الحظ ، يندب حظه لما يقاسيه ، وما يعمل معه المفتشون في دائرة الجمرك من الأعمال الشنيعة وأبرزها : شدة التفتيش وفرض الرسوم الباهظة .

(١١)

لاش في لاش

تحت عنوان : (ذكر خراب عدن) ، تحدث ابن المجاور^(٢٠) عن دخول الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول إلى عدن يوم الأربعاء ٢٦ رجب عام ٦٢٤هـ/١٢٢٦م ، مستخدماً القوة والشدة ضد سكانها ، فكانت الأيام شبه أيام المحشر ، كل منهم محتشِر ينادي : أين المفر ؟ وبدخول عام ٦٢٥هـ/١٢٢٧م قام بمصادرة أموال التجار ، فضلاً عن تلاعبه بالأوزان بزيادتها عند شرائه البضائع وإنقاصها عند بيعها ، ثم قال : ((ويُخَرَج بعد ذلك من هذه البضائع الواصلة : العشور والشواني ودار الوكالة ودار الزكاة والدلالة يفضل مع التاجر لاش في لاش)) .
أوضح نص ابن المجاور معاناة التاجر في ميناء عدن من خلال كثرة الرسوم التي يدفعها ، وهي : ضريبة الميناء (العشور) وضريبة حماية السفن (الشواني) وضريبة دار الوكالة ودار الزكاة وأخيراً نسبة الدلالة (السمسرة) ، وبذلك لا يبقى للتاجر شيء أي أنه ربما يدفع بضاعته كاملة لتسديد هذه الرسوم ! ولا يفضل له شيء^(٢١) ، فيخرج من الميناء ويديه خالية الوفاض ليس معه شيء من مال .

(١٢)

برز الإيمان كله إلى الشرك كله

ذكر ابن المجاور^(٢٢) خروج سيف بن ذي يزن إلى العراق مستنجداً بكسرى ضد الأحباش ، فأرسل إليه كسرى جيشاً ملكَ بهم اليمن ، فلما ثبت سيف بن ذي يزن في ملك اليمن عمل على إخراج عمرو بن عبد ودّ العامري إلى الحجاز ، وهو الذي برز إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضوان الله عليه) ، وكبّر النبي (صَلَّم) ثلاثاً ، وقال : ((برز الإيمان كله إلى الشرك كله)) .
انتهت المباراة بمقتل عمرو بن عبد ودّ العامري على يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، وذلك في معركة الخندق (الأحزاب) الشهيرة عام ٦٢٦م .

(١٣)

الفقر يُقرب الكفر

وصف ابن المجاور^(٢٣) الطريق من صنعاء إلى المحالب راجعاً ، مشيراً إلى أبرز منازلها وطبيعتها ، وذكر انتشار الأسود في هذه المناطق مما يشكل خطراً على الإنسان بصورة خاصة ، فضلاً عن أن القوم تأسدوا وتعلموا السحر من بعضهم البعض ، فيجتهد الإنسان في أذى الآخرين بأوحش الصورة والخُلق ، وقال النبي (صَلَّم) : ((كاد الفقر أن يكون كفراً)) .
ونحن ندعو الله سبحانه وتعالى يومياً ونستعيز به من الكفر والفقر ، بالقول : ((اللهم اني أعوذ بك من الكفر والفقر ، وأعوذ بك من عذاب القبر)) .

(١٤)

عوامل انتقال الإنسان

تحدث ابن المجاور^(٢٤) عن انتقال الإنسان من مكان الى آخر ، لأسباب وعوامل شتى ، من ذلك دخول سيف بن ذي يزن الى العراق وعودته الى اليمن بعساكر الفرس ، وكانت المسافة بين إقليمي العراق واليمن بحدود سبعة الى عشرة أيام ، كما ذكر رواية مسير عمرو بن معدي كرب في خلق عظيم وملك صعدة بعد أن خربها ، فلما خربت صعدة بَنَتْ العامة موضع الخراب بعينه ، ويقال بل قريب منه .

ويقال : ((إنما ينتقل الإنسان من مكانه لأربع خصال : لرزق يستوفيه ، أو لموت يقتضيه ، أو لسعادة تأتيه ، أو لشقاوة تستوليها)) .

(١٥)

دينار الكرم والبخل

قال حكيم : ((الكرم هو دينار ، عشرون قيراطاً منه للعرب ، وأربعة قيراط منه في سائر الأمم والعالم . والبخل هو دينار ، عشرون قيراطاً منه في الروم ويقال في الهند ، والأصح في المغاربة ، وأربعة قيراط في سائر العالم))^(٢٥) .

والقيراط من أجزاء الدينار ، وهو ربع خمسي متقال ، والدينار عشرون قيراطاً في أكثر البلدان^(٢٦) .

(١٦)

أوائل أهل الكرم

يقال : ((أول من أطعم الكسرة [كسرة الخبز] إبراهيم الخليل عليه السلام ، فهي سُنْته)) . وهذا يعني أن النبي إبراهيم (عليه السلام) أول من سن الكرم سُنْته في حياة البشر . ويقال : ((ثلاثة هم أصحاب الأعراف : أبو طالب لتربيته النبي (صَلَّم) ، وأنو شروان لعدله ، وحاتم [الطائي] لكرمه)) ، ويقال أن بعض العرب شرع في طعم الكسرة وأراد أن يعادل حاتمًا في زمانه^(٢٧) .

ورد ذكر أصحاب الأعراف في القرآن الكريم ، في قوله (عز وجل) : بسم الله الرحمن الرحيم ((وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ... ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون))^(٢٨) .

تتضح لنا بجلاء مكانة أهل الكرم ومنزلتهم الفائقة ، وأول رواد أهل الكرم هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، فهو أول من أطعم كسرة الخبز ، وأصبحت سُنْته أي طريقته وشهرته ، فضلاً عن مكانة أهل الأعراف الوارد ذكرهم في القرآن المجيد ، فأصبح حاتم الطائي أحدهم بسبب شهرته بالكرم ، فالكريم قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس .

(١٧)

كرم عرب البادية

نقل لنا ابن المجاور^(٢٩) صورة طريفة معبرة عن كرم أهل البادية ؛ إذ يقول : ((وأما عرب الفلاة فلا يتغذى أحدهم إلا قرب الظهر ، ولا يتعشى إلا قرب نصف الليل ، وما يؤخرون الغداء والعشاء إلا لأجل الضيف الذي يقدم عليهم . فإذا وصلت قافلة إلى حلة [ديرة العرب التي يحلون فيها ، أي : يسكنونها] عرب يخرج أهل الحلة إلى القافلة ، يمسك كل واحد منهم ثلاثة أربعة أنفس من أهل القافلة ، وكذلك من يكون في البيت من النساء والعجائز والأطفال ، وكل من يكون قليل النهضة ينادي بأعلى صوته : إليّ يا وجوه العرب بارك الله فيكم ! ويشير بيده إلى الإنسان ...)) .

الصورة واضحة تماماً والمشهد جميل جداً ، يدل على همة عرب البادية في إكرام ضيوفهم من سالكي الطريق عبر ديارهم ، وهي صورة لا تحتاج إلى تعليق وتدقيق عن شهرة العرب بالكرم ، الذي يُعد أحد سجاياهم وخلالهم وقيمهم الاجتماعية والإنسانية خلال العصور التاريخية المختلفة .

(١٨)

الكرم يُوجب الحُرمة والأمان

روى لنا ابن المجاور (٣٠) حكاية توضح أن الكرم يُوجب الحُرمة والأمان . فالشاعر دعبل بن علي الخزاعي هجا المطلب بن عبيد الله الخزاعي ، وفي يوم ما لقي المطلب في الطريق الشاعر دعبل ، فقال له : سيرٌ معي إلى منزلي ! فذهب دعبل معه ، فلما دخل قال المطلب : والله لأقتلك شر قتلة . فقال له دعبل : لا تقتلني وأنا جائع ، أشبعني وافعل ما شئت ستجدني إن شاء الله من الصابرين (٣١) . قال له المطلب : ((ما أحسن ما طلبت النجاة ! إن أطعمتك وجبت الحُرمة والأمان ، وإن لم أطعمك بخلتُ أي بخلٍ)) . فقال دعبل : ((والله لا ذكرتكَ بعدها بسوء)) . فأطلقه وأحسن جائزته !.

(١٩)

أنت كالبحر وكفك للعطا ساحل

روى ابن المجاور (٣٢) حكاية ظريفة حول الكرم ، عن مُحدثه يوسف بن أحمد بن يعيش ، فحواها أن أهل غلافقة صاموا شهر رمضان ، وقد حذر زيد الكبير (من أولاد القشيري) رعيته من أن يبيع أحدهم الحطب على أخيه عمرو ، وأرسل إلى أصحاب أخيه عمرو وأتباعه يمنعمهم ويحذرهم أن يوصلوا الحطب إلى بيت أخيه عمرو ، مهدداً بما سيفعله بهم في حال مخالفتهم أوامره ، ومحرمأ عليهم إدخال الحطب إلى بيت أخيه .

ولما انتهى شهر رمضان بحلول ليلة عيد الفطر المبارك ، أمر عمرو أهله أن يطبخوا ويشووا (اللحم) ، فقالوا : ((بماذا نطبخ وأخوك زيد قد حرمَ علينا دخول الحطب ؟)) وحينئذٍ أخرج عمرو خيوشاً (أكياساً) بلها بالسمن وأوقدها تحت القدور . ونرجح أنه تصرفَ بهذه الطريقة بصورة سرية دون علم أخيه زيد بما فعل .

في صبيحة يوم العيد ، وبعد أداء الناس صلاة العيد ، قام عمرو وسبق أخاه زيدا ، داعياً الناس إلى تناول الطعام في بيته ، مخاطباً إياهم بقوله : ((بسم الله يا أصحابي إلى داري بارك الله فيكم !)) ، وبالفعل دخلت الناس داره إلى أطعمة وأشربة وأشوية لم يكونوا يتوقعونها ويعهدونها من قبل . قام زيد وقال لأخيه عمرو : يا أخي من أين لك الحطب ؟ فأخبره عمرو أنه لما منعَ الحطب عليه - وكان ذلك من قلة خير أخيه زيد - فإنه [الكلام لعمرو] أوقدَ الخيوش (أي الأكياس) المنقوعة بالسمن الكثير ، عند ذلك تعب أخوه زيد من علو همته ، وأكل جميع من في غلافقة من داره ، وأقبلوا على طعامه ، فتعجب زيد من فعل أخيه عمرو وعلو همته ، وقال : ((ياأبا [يا أبا] محمد قَدُمك في الموضع الماحل ، أوزقَ العود في كفك وهو فاضل ، والبُخل إذا ما سمعك انتزح راحل ، وأنت كالبحر وكفك للعطا ساحل)) .

إن هذه العبارات التي أطلقها زيد القشيري واصفاً أخيه عمرو ، لها وقعها وصدائها المؤثر ، فهي توضح ندم أخيه على ما فعله من جهة ، وتُشيد بكرم أخيه الذي وُصف وكأنه البحر ؛ لجوده وكرمه من جهة أخرى ، وشُبهَ كفهُ بساحل ذلك البحر .

ولعل الأخوين كانا يتنافسان بينهما على أن يسبق كل واحد منهما الآخر في الكرم والعطاء ، لكن عمرو سبق أخاه زيد وحاز قصبَ السبق في الكرم مفاجئاً إياه بهذه المبادرة الكريمة ؛ مما يؤكد أن الكرم كان سجية ناصعة من سجايا العرب وعاداتهم وتقاليدهم العريقة .

(٢٠)

عابد بخيل وفاسق سخي

سئل إبليس : من أحب الناس إليك ؟ قال : ((عابد بخيل . قيل : فمن أبغضُ الناس إليك ؟ قال : فاسق سخي . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأنني أرجو أن لا يقبل الله عبادة البخيل وأعلم أنه لا يتم له شيء من الخير مع البخل ، ولا آمن أن يطلع على العبد الفاسق فيرى بعض سخائه فينجيه ويرحمه به))^(٣٣) .

نستنتج من هذا النص أن الشيطان يَغوي الإنسان ، فيبعده عن الكرم مع عبادته والتزامه الديني ، فهذا الشخص العابد البخيل هو أحب الناس إليه ، في حين أن الفاسق السخي ، هو شخص بغيض عند الشيطان ؛ لأن العابد البخيل ليس له نصيب من الخير ، في حين أن الفاسق السخي يرحمه سخاءه وينجيه من آثامه ؛ لذلك قيل : الكريم قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس ، وقيل : البخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس . وبصورة عامة يمكننا القول أن مسألة الكرم والبخل هي مسألة أخلاقية نسبية ، تختلف من عصر إلى عصر .

(٢١)

البر والدُر

" قال أبو شيروان العادل لوزيره بزرجمهر : كم يساوي تاجي هذا ؟ قال : دخل مطرة في نيسان . قال : وما المعنى فيه ؟ قال : إن وقع في البر فهو بُر وإن وقع في البحر فهو دُر " ^(٣٤) .

نستنتج من هذه المحاوراة بين الملك أبو شيروان ووزيره بزرجمهر ، أن مطر نيسان (أبريل) ضروري جداً وذو مردود اقتصادي وخير وفير ، فإن سقط على الأرض (البر) فهو بُر ، أي سينبت الحنطة أو الشعير ، وإن سقط على البحر فهو دُر ، أي يُنبت اللؤلؤ والمرجان من صدف البحر ، الذي يلتقط الغيث (المطر) وينضم الصدف على قطرات الغيث ^(٣٥) .

روى ابن المجاور ^(٣٦) أنه وجد في سطر مكتوب : ((بَدَلْنَا حَمَل دُر بِحَمَل بُر ، وما مسنا ضُر ، والله المستعان)) .

وَوُجِدَ مَكْتُوباً أَيْضاً فِي مَدِينَةِ أَبِي سَيَّارٍ مِنْ أَعْمَالِ حَرَانَ : ((طَلَبْنَا الْبُرَّ بِالْأُذْرُ فَمَا وَجَدْنَاهُ)) .

(٢٢)

شاوروهون وخالفوهن

تحدث ابن المجاور ^(٣٧) عن صفة جزيرة قيس في الخليج العربي ، ووصف سكانها باعتزازهم بالغرباء وعنايتهم بهم عناية عظيمة ، وأضاف أن نساء هذه الأعمال تحكمن على رجالها ، وينفذ الرجل ما تطلبه منه زوجته من صلاح أمر أو فساد حال ، وهذا خلاف ما قاله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ((شاوروهون وخالفوهن فإن في مخالفتهم البركة)) .

وحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا شائع ومتداول بصورة معروفة ، فهو يتضمن الاستماع أو سماع آراء ووجهات نظر النساء ثم مخالفتهم بعد ذلك ، أي عدم الالتزام بأرائهن ، ولعل هذه المخالفة تُجسد دوماً دور الرجال وهيمنتهم على النساء في المجتمع ، انطلاقاً من قوله تعالى : ((الرجال قوَّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ...)) ^(٣٨) .

ولعل صيغة الحديث الشريف للرسول (صَلَّم) أعلاه ، الصحيحة هي بصيغة نون النسوة ؛ بدليل ماورد- في هامش كتاب تاريخ المستبصر (ص ٢٩٦) على الضمير المتصل (هم) ، في : شاوروهون ، خالفوهن ، مخالفتهم - بدلاً منه بالضمير الصحيح : (هن)، فيصبح الحديث الصحيح للرسول صَلَّم : ((شاوروهون وخالفوهن فإن في مخالفتهم البركة)) .

ثانياً - (الأمثال والحكم والعبر):

تشكل الأمثال والحكم والعبر ميزة من ميزات كتاب : صفة بلاد اليمن ٠٠٠ (تاريخ المستبصر) لابن المجاور البغدادي النيسابوري ، تتوزع على مواضع متنوعة في صفحات كتابه بقسميه ، ارتبط بعضها بقصة أو حكاية أو حادثة ، أصبحت مناسبة لإطلاق المثل وإرتباطه بها ، وجاء ذكر بعضها دون توضيح مناسبتها ، ربما لتكون مثلاً أو حكمة أو عبرة شائعة ومعروفة ، وسنوردها تبعاً لتسلسلها ، وكالاتي :

(١)

إمّتك الفصيل ما في ضرع أمه

تحدّث ابن المجاور (٣٩) عن أسماء مكة وصفاتها ، وأن الله تعالى سماها بأربعة أسماء : مكة والبلد والقرية وأم القرى ، مستشهداً بتسميتها (مكة) بقوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ((وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة)) (٤٠)، ونُقِلَ عن الزجاج قوله: "مكة لا تتصرف لأنها مؤنثة وهي معرفة ، ويصلح أن يكون اشتقاقها بكة ؛ لأن الميم يُبدل من الباء ، كما يُقال : ضربة لازم ولازم ٠٠٠".

وفي تسمية مكة بهذا الاسم عدّة أقوال ، أحدها أنها تقع على مسافة بعيدة يأتيها الناس من أماكن بعيدة ، فكأنها هي التي تجذبهم إليها ، من قول العرب : "إمّتك الفصيل ما في ضرع أمه " (٤١)، وهذا القول تشبيه لقيام الرضيع بجذب اللبن من ضرع أمه ، أي أن مكة تجذب الناس إليها كما يجذب الرضيع اللبن من ضرع أمه إليه ، فهي مركز استقطاب وجذب للناس إليها ، وقد شُبهت بذلك لشدة ازدحام الناس فيها .

وبكة هي مكة قاله الضحاك ، وأحتج ابن قتيبة لتصحّجه ، وقال : ان الباء تُبدل من الميم ، ويُقال : ضربة لازم ولازم . قال تعالى : ((إن أول بيت وُضِعَ للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين)) (٤٢) .

(٢)

الصديق بمنزلة الرأس والعدو بمنزلة الرجل

في حديثه عن معاملات مكة ، أوضح ابن المجاور (٤٣) أنواع الأديم (الجلود) وتجارته ، منه الجيد ومنه الثقيل النقي الطاهر ، ومنه الخفيف الذي يُصدّر الى العراق والشام ، في حين كان الأديم الثقيل يُصدّر الى خوارزم وخراسان ؛ لأنهم يُبطنون به الخُف ، ثم ضربَ هذا المثل ، بقوله : " ويُقال إن الصديق بمنزلة الرأس والعدو بمنزلة الرجل ، ولأجل ذلك لبست أهل هذه النواحي أرجلهم أجود ما يكون من الملابس". ولعلّ هذا القول من باب تقييم وتثمين منزلة الصديق بتشبيهه بالرأس بالنسبة للإنسان ؛ لأنه مركز التفكير والحركة والحيوية ، في حين أن العدو بمنزلة الرجل التي يركز عليها جسم الإنسان ويُحرّكها بعقله الذي مصدره الرأس .

(٣)

شاوَرُ المسلمين ونام عند النصارى وتعشى عند اليهود (٤٤)

في هذا الكلام البليغ إشادة بدور المسلمين وحسن تفكيرهم ، مما يستدعي منك أن تستشيرهم إذا عزمت على أمر ، بسبب سداد رأيهم وبعده نظرهم ، في حين تطمئن بعد ذلك وتأمين ، فتنام عند النصارى وتأكل عند اليهود ، وقد تحدّث ابن المجاور عن شهور اليهود وبعض العادات الإجتماعية لديهم خصوصاً المتعلّقة بالنساء .

(٤)

مَنْ سَتَرَ غَيْرَ

أوضح ابن المجاور^(٤٥) منازل الطريق من مكة الى المحالب بإتجاه اليمن رجوعاً ، ومنها : فرع وهي أرض بني شعبة ، ونسأؤهم تلبس الأدم ، تأخذ المرأة طاقين من أديم تُخيط بعضه الى بعض وتُقور فيه قوارة وتكتسيه ، فإذا مَشَتْ بان جميع بدنهما من فوق ومن تحت ، وإذا رأى رجل غريب المرأة على ذلك الزي ، يقول لها إستتري ، فيقول له زوجها : أكسيها ، فإن كساها فخير وإلا قتله؛ لأنهم يقولون : مَنْ سَتَرَ غَيْرَ .

وصف ابن المجاور بني شعبة هؤلاء ، بقوله: " ولم يكن في جميع العالم أضل من هؤلاء القوم ولا أسرف ولا أكرم ولا أجسر منهم في أخذ مال الحاج ؛ لأنهم يُسمون الحاج : جفنة الله ، فإذا قيل لهم في ذلك ، يقولون : إذا حضر جفنة الله لخلقهِ ، أكل منه الصادر والوارد . " .
كان بنو شعبة يقيمون في طريق مكة ، وهم من القبائل التي تسكن جنوب مكة ، وتنتشر بصورة خاصة في وادي آدام وما حوله حتى وادي الخضراء ، ويمثلون أشد القبائل خطورة على الحجاج القادمين من اليمن .

(٥)

حَرَضَ لَيْلَهَا طَابَةٌ وَنَهَارَهَا مِصْلَابَةٌ

وصف ابن المجاور^(٤٦) تهامة ومدنها الشهيرة في اليمن ومنها زبيد ، كما وصف أحوالها بأن ليلها طيب ونهارها كرب ، أي حار رطب فيقال: "حَرَضَ لَيْلَهَا طَابَةٌ وَنَهَارَهَا مِصْلَابَةٌ" .

(٦)

مَنْ عَزَّ بَزًّا

ذكر ابن المجاور^(٤٧) تولى القائد فرج بن إسحاق السحرتي من الأحباش ، أعمال الكدراء ، وهي مدينة من أعمال زبيد ، ففتح باب العطاء على نفسه لكل قاصد ووافد ، وكل دان وناء (قريب وبعيد) ، وهذا من مظاهر جوده وكرمه ؛ فلما كثرت من الناس بدعوى إتلافه الأموال وتبديدها ، لكنه استمر في تصرفه هذا وأمر أن يُكتب على باب داره بيتان من الشعر : " مَنْ عَزَّ بَزًّا وَلَمْ تُؤْمَنْ بَوَاتِقُهُ . . . " ^(٤٨)

مَنْ عَزَّ بَزًّا وَلَمْ تُؤْمَنْ بَوَاتِقُهُ لَا بَارِكَ اللَّهُ فِي مَالِ أَخْلَفِيهِ

وَمَنْ تَضَعَضَعَ مَأْكُولٍ وَمَذْمُومٍ لِلْوَارِثِينَ وَعَرَضِي فِيهِ مَشْتَمُومٌ

ورد القول (مَنْ عَزَّ بَزًّا) في صدر البيت الاول منهما ومعناه أن مَنْ عَزَّ ، أي أصبح عزيزاً مُتَّفِئِذًا ، يَبِزُّ أَقْرَانَهُ ، أي يَتَقَدَّمُ وَيَتَمَيَّزُ وَيَتَفَوَّقُ عَلَيْهِمْ بِأَعْمَالِهِ ، والقول : عَزَّ بَزًّا ، هو من باب المُجَانَسَةِ ، وأصبح مثلاً يُطْلَقُ عَلَى التَّفَوُّقِ وَالتَّمَيُّزِ لِصَاحِبِهِ .

تحدت المرزوقي^(٤٩) عن أسواق العرب القديمة قبل الإسلام ، ومنها الأسواق الموسمية ، فذكر منها سوق الرابية (رابية حضرموت) التي لا يمكن لقوافل التجارة الوصول إليها إلا بخفارة أي بحراسة ؛ لعدم وجود حكومة مركزية فيها ، ثم يقول : " وكان مَنْ عَزَّ فِيهَا بَزًّا صَاحِبَهُ " ، فكانت قبيلة قريش تستعين لحراسة قوافلها التجارية ببني آكل المرار من كندة ، في حين كان بقية الناس يحرسهم آل مسروق بن وائل الحضرمي ، لذلك عَزَّ هؤلاء وبزوا غيرهم من القبائل في فضلهم عليها لحراستهم قوافلها التجارية ، مقابل إستيفاء الرسوم على تجارة تلك القبائل القادمة الى سوق الرابية .

(٧)

قول المرأة على المرأة مُصَدِّق

ذكر ابن المجاور^(٥٠) أن نساء زبيد تتبادل الطَّرَحَ (الهدايا والواجبات) فيما بينها ، وهي عادة معروفة في عموم اليمن ، إذ يتمُّ تقديم الهدايا والواجبات الاجتماعية في مناسبات : الزواج والولادة والختان والوفاة ، وهي أشبه بديون يسددها الناس في مناسباتهم ويتمُّ ردّها بينهم ، فكل امرأة تُردُّ مال الناس الذي عليها، ثم قال : " وليس يُقبل منها يمين ولا شاهد إلا قولُ المرأة على المرأة مُصَدِّقٌ " .

(٨)

لا تنظر الى طول المنارة ولكن أنظر الى الجامع^(٥١)

يُضْرَبُ هذا المثل بأن العبرة ليس في طول منارة الجامع ، سواء أكانت قصيرة مُنخَفِضَةً أم طويلة مرتفعة ، بل العبرة في بناء الجامع وأداء الخدمات الأساسية للناس الذين يرتادون الجامع ، وهي خدمات متنوعة : عبادية وثقافية . حيث يُتَّخَذُ الجامع مكاناً لأداء الصلاة ومكاناً للتعليم ولحلّ المشاكل والخلافات (القضاء) ولانطلاق الحملات الجهادية ضد أعداء الإسلام ، كما أن بعض المدن الصغيرة تكون منتجة لكثير من المنتجات وتُصدِّرها الى أنحاء العالم عبر مسافات طويلة ومنتوعة برية وبحرية ، دون أن تكون تلك المدن ضخمة ومتطورة وكبيرة الحجم ، فالعبرة في الخدمات الكثيرة والمتنوعة التي تؤديها ، وليست العبرة في كبر حجمها أو توسعها أو كثرة عدد سكانها .

(٩)

غَلَطْنَا فِي الْكَيْلِ فَشَرَدَ مِنَّا الْحَيْلُ

إنفردَ ابن المجاور^(٥٢) بذكر حوادث غزو عدن بحرياً من قبيل ملك جزيرة قيس (كيش) ، حيث أرسوا قرب جبل صيرة ، فأرسل صاحب قلعة التعكر (المُشرفة على باب البر) سبأ بن أبي السعود من بني المكرم رسالة الى ابن عمه محمد بن أبي الغارات صاحب حصن (قلعة) الخضراء المُشرفة على باب البحر والمراكب ، يسأله ما العمل ؟ أي ماذا نصنع وقد داهمنا العدو؟ فقال له : " غَلَطْنَا فِي الْكَيْلِ فَشَرَدَ مِنَّا الْحَيْلُ " ، طالباً من ابن عمه أن يعمل برأيه ، فطلبَ منه أن ينزل من حصن الخضراء ، وتعهَّد بالتصدي للعدو المُسمَى : الجاشو ، وإبعاد شره وخطره .

نستدل من هذا القول على حالة الارتباك والتخبط من قبل محمد بن أبي الغارات صاحب قلعة الخضراء بعدن المُشرفة على باب البحر والمراكب ، الذي فوجئ بمُحاصرة الغزاة (الجاشو) لقلعته ورسو مراكبهم تحت جبل صيرة. ثم انتهى ذلك الغزو البحري بالفشل الذريع وانكسار الغزاة وهزيمتهم ، في حدود عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ، في الأعم الأرجح^(٥٣) .

(١٠)

خَفْتُ مِنَ الْمَطْرِ وَقَعْتُ تَحْتَ الْمِيزَابِ!

روى ابن المجاور^(٥٤) قصة التاجر الذي وصل بمركبه ميناء عدن ليلاً ، فنزلَ من مركبه ودارَ في المدينة ، فإذا هو بدارٍ عالية مُضاءة بالشمع ومُبَجَّرَةٌ بالعود ، عند ذلك طرَقَ البابَ ونزلَ الخادم ففتحَ له ، سائلاً إن كان له حاجة ، فأجابه : نعم ، فاستأذن الخادم له وطلبَ صاحب الدار منه أن يصعد إليه ، فصعدَ وسلمَ كلُّ على صاحبه من غير معرفة ، وجرى الحديث ، فطلبَ الناخوذة صاحب المركب منه أن يُخفي عنده بعض الثُحَفِ ، ولما سأله صاحب الدار عن السبب ، أجابه : خوفاً من الداعي ، فأجابه بالموافقة ونقلَ جميع ما معه الى مكان حدَّدهُ له ، فنزلَ التاجر وصار أصحابه البحارة ينقلون المتاع من المركب الى الدار ، حتى أفرغوا ثلثي المركب .

لما أصبح الصباح وجد الناخوذة أن صاحبه ليلة البارحة هو الداعي (أمير عدن) بعينه ، الذي تُرَجِح أنه الداعي محمد بن سبأ بن أبي السعود ، أو ربما ولده الداعي (عمران) ، فقال الناخوذة في نفسه : " خفتُ من المطر وقعتُ تحت الميزاب ! " . بمعنى أن مَنْ هَرَبَ من المطر وقع تحت مجرى ماء المطر (الميزاب) ؛ تعبيراً عن الخوف ، ودلالة على تشوش خاطره وإسوداد ناظره . كانت المفاجأة أن الداعي أرسل إليه يُخبره أنه صاحبه البارحة ، وأنه الداعي مالك عدن اليوم! لذلك طيَّب خاطره وشرح صدره ، فأعفاه من عشور (رسوم) مركبه هبة له مع الدار التي نزلَ فيها ، فضلاً عن ألف دينار يصرّفها مادام ضيفاً في بلاده (٥٥) !

(١١)

المفلس في أمان الله

إنفردَ ابن المجاور^(٥٦) بذكر العمل بجواز السفر في عدن ، فلو أراد أحد الاشخاص مغادرة عدن من باب البر أو باب البحر ، فإنه لم يستطع ذلك إلا إذا كان معه خط جواز (وثيقة جواز سفر) وضامن أي كفيل يضمنه بما يظهر عليه بعد سفره من مال أو عشور ، ويُكْتَب في الوثيقة إسم والي المدينة وتوقيعه وختمه ، وبذلك يتمكن هذا الشخص من السفر بطريقة أصولية بعد توديعه من قبل أهله وأصحابه .

أما الشخص غير المعروف والذي ليس له ضامن يضمنه بعد سفره ، فإن الاجراء المُتَّبَع بحقه قيام منادٍ يُنادي عليه في أسواق المدينة : أن فلان بن فلان خارج (مسافر) من الباب ، فكل مَنْ له عليه شيء يُطالبه ، فإن ظهر عليه شيء ما من مال أو ديون مستحقة لإدارة المدينة والميناء أو لأحد أفراد المجتمع ، يُمنع من السفر الى حين تسوية أموره ، أما إذا لم يظهر عليه أي شيء من كل هذا ، فبإمكانه أن يخرج (يغادر) إلى أي موضع شاء ، كما قيل في المثل : "المفلس في أمان الله" .

وقريب من هذا المثل هنالك المثل الشائع : " المفلس في القافلة أمين " ، ويُضرب هذا المثل ، لأن المفلس الذي يسير في القافلة ، وهو لا يحمل مالا ولا بضاعة ، يكون خاطره مستريحاً وباله مطمئناً ، عندما تتعرض القافلة في الطريق للسلب والنهب .

تحدثَ ابن المجاور^(٥٧) عن منازل الطريق من عدن الى المفاليس ، والأخيرة هي قصبة مختصرة بُنيت في شعب جبل مثلث ، يقول ابن المجاور^(٥٨) : " وما شئقَ إسم المفاليس إلا من الإفلاس " ، واستشهدَ ببيتين من الشعر لأبي نؤاس ، والمفاليس هم الذين ليس لهم مال ، أي فقراء ومساكين ، على العكس من المياسير ، أصحاب المال والأغنياء من الناس ، فهم مُرْفَهون لأن حياتهم ميسورة لإمتلاكهم المال ، وذكرَ ابن المجاور^(٥٩) أيضاً أنه زارَ المفاليس ونقلَ لنا حديثاً فيها عن علي بن محمد بن أحمد الساعي ، نقلًا عن فهر بن عبد الله بن راشد سلطان حضرموت ، بخصوص أن أصل المهريّة من قرية الدباب ، والساعي أحد رواة ابن المجاور ومحدثيه ، الذي التقى به وحدّثه في المفاليس .

(١٢)

يا أبا حسان !

يُقال للصنعاني : ياأبا حسان . روى ابن المجاور^(٦٠) حديثاً عن يحيى بن عبد الله الخياط ، أن أسعد الصنعاني زرع شعيراً في أرض له ، فلما بلغ الزرع النضج والحصاد ، أخبرَ الحَصَاد إن كانوا يرغبون شراء الحنطة ، فاجتمع للحصد عدد كبير منهم ، فلما وصلوا الزرع فوجئوا أنه شعير! ، قال - الحديث ليحيى بن عبد الله الخياط - : " فنادى بعض الحَصَادين بعضهم : يا أبا حسان ! يعنون صاحب الزرع ؛ لأن كنية أسعد : أبو حسان ، أي كذبَ أبو حسان" . وصار القول (أبو حسان) هذا مثلاً يُضرب في مَنْ يكذب ، أي يُظهر عين الغلال حنطة ويبيع شعير ، وهذا عيب عظيم ، وكان ذلك المثل معروفاً منذ هذه الحكاية عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م .

(١٣)

صنعاء مُحاصرة

نَقَلَ ابن المجاور^(٦١) حكاية عن سليمان بن منصور ، خلاصتها أنه إذا وقع في لحية أحد من العرب (زيد) ، شيء من فُتات الخبز أو قِشْر أو أي شيء لا يليق به ، يقول عمرو لزيد : صنعاء مُحاصرة ! ، فيمسك زيد لحيته ويهزها ؛ ليقع ذلك الشيء منها ، ويقول : "حاشى صنعاء تُحاصر وهذه اللحي باقية !" ، وهي إشارة بين القوم . ويُقال في الشام : "حلب مُحاصرة".

(١٤)

فوائد دهن الإبل

قال حكيم : " إذا دَهَنَ زيد رأسه من دهن الإبل لم يقلعه شيء ، ولم ينتظف الشعر إلا إذا حُلِقَ الشعر ، لأنه غليظ بالمرّة" .
ورد كلام الحكيم هذا عن فائدة دهن الإبل في نهاية حديث ابن المجاور^(٦٢) عن العُرِّ ، وهو فحل الجمل عندما يُصاب بالجرب ، ويُعالج بالكي فوق الريح ، وزبد الإبل هو الذي يُستخرج من حليب (البن) الناقة .

(١٥)

استراحت عواذلي من عتابي

يُضرب هذا القول مثلاً لمن يؤدي ما عليه من عمل كائناً ما كان بقناعته ورضاه ، سواء أكان واجباً أم التزاماً ، لكي لايندم على ما فعل ولا يلوم نفسه لو لم يقم بذلك العمل ، فيشعر بالراحة لأنه أدى الذي عليه دون لائمة أحد .
ذكر ابن المجاور^(٦٣) حديثاً عن سليمان بن منصور حول زواج أهل نجد ، فحواه أن جميع أعمال الجبال وجميع أهل البوادي (البدو) وتهامة ونجد ، يزوجون بناتهم ، ولايورثون البنات شيئاً ، لكن إذا كانت البنت بكرة يتم تجهيزها وزواجها من مال أبيها .
أما إذا كانت البنت متزوجة ذات عيال (أرملة أو مطلقة...) ، فقد استراحت عواذلي من عتابي .
والمعنى أن الأب لا يُجهز زواج ابنته من ماله الخاص ، وبذلك يستريح من العتاب حول هذا الأمر ولا يلومه أي أحد (عادل) لعدم إسهامه بماله في زواج ابنته ؛ لأن هذه تقاليد القوم وعاداتهم السائدة بينهم ، التي يلتزمون بتطبيقها بشكل اعتيادي معروف .

(١٦)

والله ما تصير إلا تيس ، كما أعطى حبّ وأخذ حيس

تحدّث ابن المجاور^(٦٤) عن الطريق من نَجْر إلى زبيد راجعاً ، فذكر حيس ، وهي مدينة بناها الأمير جياش بن نجاح ، ثالث ملوك بني نجاح في زبيد ، فلما تولى جياش الملك ، بنى حيس وأرسل إلى أهله وقرابته ، طالباً منهم الانتقال من أعمال الحبشة والسكن فيها ، ويُقال أن غالب سكانها من نسل السودان (الأحباش) ، وليس فيها بيت من العرب ، وبها يضرب أهل اليمن المثل ، يقول زيد عمرو : "والله ما تصير إلا تيس" ، فيقول له عمرو : ولم ؟ فيقول : "كما أعطى حبّ وأخذ حيس" .
روى ابن المجاور نقلاً عن يحيى بن علي بن عبد الرحمن الزراد ، أن أحد هؤلاء العبيد الأحباش تنازل عن حصن حبّ ، وهو من الحصون المنيعة جداً ، فأعطاه سيف الدين سنقر - أحد القادة والأمراء في عهد السلطان طغتكين بن أيوب - مدينة حيس ، مقابل تسليم حصن حبّ وهي مساومة غير موفقة ، وذلك ان يتنازل عن حصن من الحصون المنيعة في اليمن مقابل تسليم مدينة حيس لأحد العبيد ، وصار هذا مثلاً بين عوام زبيد ، كيف تُستبدل قلعة حصينة منيعة مقابل مدينة أو منطقة سهلية فسيحة ! .

(١٧)

الجنون فنون

تحتَ عنوان : "صفة جزيرة قيس" أسهب ابن المجاور^(٦٥) في الحديث عن هذه الجزيرة ومعالم حياة سكانها ، ومنها وجود النخل وزراعة القرظ بها ، ووجود المياه في العيون والسيول ، ومأكول أهلها السمك ، وبناء دورهم المرتفعة بالحجر والجص والتي تصل الى سبع طبقات وكل دار منها شبه حصن مانع ، وبها أشجار ثقلت من البصرة إليها ، وزراعة البقول وسائر الخضراوات فيها ، ثم يقول : "وفي أهلها عرقٌ تكبرُ وعرق خفة وعرق جنون" ، كما يُقال : "الجنون فنون" . وهذا المثل يُضرب لمن يتصرف تصرفات غريبة لا تتسجم مع تقاليد المجتمع المعتادة .

هوامش وتعليقات البحث، ومصادره ومراجعته:

- (١). أبو بكر بن محمد بن مسعود بن علي بن أحمد البغدادي النيسابوري، (المتوفى بعد عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) . كتاب: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسماة : تاريخ المستبصر ، قسم ١-٢، اعتنى بتصحيحها: أوسكر لوفغرين ، مطبعة بريل ، (لیدن ، ١٩٥١ ، ١٩٥٤م) ، ص ٥ . ويُنسب تأليفه خطأ الى جمال الدين ابي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بـ : ابن المجاور الشيبانيي الدمشقي ، (ت: ٦٩١هـ/١٢٩١م) .
- وصدرت طبعة ثانية للكتاب ، هي صورة طيق الأصل للطبعة الأولى ، ليس فيها تغيير سوى غلاف الكتاب فقط ! منشورات المدينة ، توزيع شركة دار التنوير للطباعة والنشر ، (بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م) .
- راجع عن قناعة أهل مكة : ابراهيم ، أ.د. محمد كريم : أشعار الحكم والمواعظ والعيبر والثروس في كتاب : صفة بلاد اليمن ... (تاريخ المستبصر) لابن المجاور البغدادي النيسابوري ، مجلة التواصل ، العدد (١٠) ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ، (عدن، يوليو ٢٠٠٣م) ، ص ٦٤ .
- (٢). تاريخ المستبصر ، ص ١٥ .
- (٣). المصدر نفسه ، ص ٢٦-٢٧ .
- (٤). المصدر نفسه ، ص ٣٩ .
- (٥). ذكر ابن المجاور (تاريخ المستبصر ، ص ٨٣) ، قول الرسول (ص) : الكعبة يمانية والركن الأيمن يمانى والإيمان يمانى . راجع أيضاً : الشمري ، أ.د. محمد كريم ابراهيم : أشعار الغربة والحنين إلى الاوطان والتغني بالمنازل والديار والخلان في كتاب : تاريخ المستبصر لابن المجاور البغدادي النيسابوري ، المتوفى بعد عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، مجلة التواصل ، العدد (٨) ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ، (عدن ، يوليو ٢٠٠٢م) ، ص ٣٣ . انظر : إحالة رقم (٨) من بحثنا هذا وهامشها .
- (٦). تاريخ المستبصر ، ص ٨٢ ، راجع أيضاً: الشمري : أشعار الغربة والحنين ، ص ٣٢ . وقال ابن المجاور عن تسمية المسلب ، "لأن نساءها يسلبون العقول من حُسنهم وجمالهم وظرافتهم" . تاريخ المستبصر ، ص ٢٤٦ ، راجع أيضاً : الشمري : أشعار الغربة والحنين ، ص ٤٤ .
- (٧). أبو عامر أويس بن عامر بن حرب بن عمرو المرادي ثم القرني ، خير التابعين بشهادة سيد المرسلين ، أدرك عصر رسول الله(ص) ، ولم يره ، شغله بره بأمه ، وفي رواية عن عمر بن الخطاب (رض) عن رسول الله(ص) ، يقول : " خير التابعين رجل يُقال له أويس" ، وهو رجل من قرن من مراد ، توفي بدمشق بعد مشاركته في فتح أذربيجان في خلافة عمر بن الخطاب (رض) . أنظر عن تفصيل ترجمته: الشرجي ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف، (ت: ٨٩٣هـ/١٤٨٧م) . طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص ، (بيروت ، ١٩٨٦م) ، ص ١٠٩-١١٤ .
- (٨). قال رسول الله(ص) : ((أتاكم أهل اليمن ، هم أرق قلوباً ، الإيمان يمان ، الفقه يمان ، الحكمة يمانية)) . البصري ، معمر بن راشد الأزدي ، (ت: ١٥٣هـ/٧٧٠م) . كتاب الجامع في الحديث ، مطبوع بعد كتاب : المصنف ، للحافظ الكبير أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعائي ، (ت: ٢١١هـ/٨٢٦م) ، ج ١١ ، تحقيق وتعليق : حبيب الرحمن الاعظمي ، منشورات المجلس العلمي ، (بيروت ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ، ص ٥٢ .
- (٩). تاريخ المستبصر ، ص ٨٣ ، راجع أيضاً الشمري : أشعار الغربة والحنين ، ص ٣٣ .
- (١٠). تاريخ المستبصر ، ص ٨٥ ، وذكر ابن المجاور (في حديثه عن حشمة أهل المنذرية) . تاريخ المستبصر ، ص ٩٩ ، عن وفاء العرب ، إذا وفي أحدهم بما عليه ، نادى منادٍ في سائر العرب وفي كل مجمع : ألا أن فلان ابن فلان طاب بطيب العرب ، أي بأخلاقهم النظيفة المعطرة .

- (١١). وصف ابن المجاور مدينة زبيد بأنها طيبة ، لأنها تقع بين واديين هما : وادي زبيد ووادي رمع ، وروي عن عبد النبي بن علي بن مهدي انه حكى لجمع من الحاضرين في مجلسه أنه يتعجب من أهل هذين الواديين ، ولما سأله عن سبب تعجبه ، قال : ((رأيتُ كل خلق الله من الرجال يميل طبعهم الى الفحولة والذكورة إلا مَنْ سَكَنَ بين هذين الواديين فان طبعهم مائلٌ الى الخنث وخصال النساء. قالوا : وبمَ تحقّق عندك ذلك ؟ قال : كُلتُ مِنْ الخلق يميل الى ما يصلح به دينه وديناه إلا أهل زبيد فإنهم مائلون الى الأكل والشراب والملابس النظاف والمركوب الوطئ وشم الطيب ويميل طبعهم الى النساء أكثر من ميل طبعهم الى الرجال . فقال بعض مَنْ حَضَرَ المجلس : ما وُضعت بين واديين إلا كرجل يسكن بين امرأتين . يميل الى من مالت نفسه وسكنت جوارحه إليها)) . تاريخ المستبصر ص ٦٩-٧٠ .
- (١٢). المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .
- (١٣). فُرْضة النهر ثلمته التي يَسْتَقِي منها ، وفُرْضة البحر : محط السفن ، والفُرْضة : المشرعة . الجوهرى ، إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م) . الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، ج ٣، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، مطابع دار الكتاب العربي، (القاهرة ، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م) ، ص ١٠٩٧، ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ/ ١٣١١م) . لسان العرب ، ج ٧، (بيروت ، ١٩٥٥م) ، ص ٢٠٦ . وقيل أن الفُرْضة تشبه حالياً دائرة الجمرك ، لتحصيل الرسوم على البضائع الواردة والصادرة . أباطة ، د. فاروق عثمان : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة ، ١٩٧٦م) ، ص ٢٨ .
- (١٤). من هنا استمر النص ، ص ١٣٠ ، وعلى ص ١٢٩ : صورة مدورة لعدن .
- (١٥). تاريخ المستبصر ، ص ١١٠ .
- (١٦). للاستاذ حسن صالح شهاب كتاب ، بعنوان : عدن فُرْضة اليمن ، منشورات مركز الدراسات والبحوث اليمني / صنعاء ، الطبعة الاولى ، (صنعاء ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ، في ٢٥٣ صفحة .
- (١٧). تاريخ المستبصر ، ص ١٣٥ .
- (١٨). المصدر نفسه ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، (والنص منقول من الصفحة الأخيرة) .
- (١٩). الحُرْف هو الحرمان ، والمُحْرَف الذي ذَهَبَ ماله ، والمحارف الذي لا يُصِيب خيراً من وجه تَوَجَّه له (منقوص الحظ) ، والمصدر : الحراف . ابن منظور : لسان العرب ، ج ٩/٤٣ .
- (٢٠). تاريخ المستبصر ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .
- (٢١). من ذلك ماجرى للناخوذة عثمان بن عمر الأمدي ، الذي قَدِمَ الى عدن ومعه مَنِين عُود ، دفع عليهما عشور قديم وهو مال الفُرْضة فضلاً عن دفع عشور الشواني ودار الوكالة ودار الزكاة والدلالة ، ودخل المتوسط بينهم حتى خرج رأس برأس ، أي دفع بضاعته تسديداً للعشور دون مقابل !! ، راجع عن هذه الحكاية : ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ١٤٤ .
- (٢٢). تاريخ المستبصر ، ص ١٧٦ ، راجع أيضاً : ابراهيم : أشعار الحكم والمواعظ ، مجلة التواصل ، ١٠/٧٣ .
- (٢٣). المصدر نفسه ، ص ١٩٤ .
- (٢٤). المصدر نفسه ، ص ٢١٦ . راجع أيضاً : الشمري : أشعار الغربة والحنين ، مجلة التواصل ، ٨/٤٣ .
- (٢٥). المصدر نفسه ، ص ٢٢١ .
- (٢٦). الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف ، (ت: ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) : مفاتيح العلوم ، مطبعة الشرق ، الطبعة الأولى ، (القاهرة ، ١٣٤٢هـ) ، ص ٤١ .
- (٢٧). ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٢٢١ .
- (٢٨). القرآن الكريم ، سورة الأعراف (٧) ، الآيتان : ٤٦ ، ٤٨ .
- (٢٩). تاريخ المستبصر ، ص ٢٢٢ .
- (٣٠). المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
- (٣١). سورة الصافات (٣٧) ، آية : ١٠٢ (وفي النص تضمين من القرآن الكريم) .
- (٣٢). ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .
- (٣٣). المصدر نفسه ، ص ٢٤٢ .

- (٣٤). المصدر نفسه، ص ٢٩٢. راجع بحثنا: أشعار الحكم والمواعظ، مجلة التواصل، ٨٣/١٠، وعن أنو شروان العادل، وأنه من أصحاب الأعراف، راجع ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢٢١، راجع أيضاً إحالة رقم (٢٧) وهامشها من بحثنا هذا.
- (٣٥). راجع بحثنا: أشعار الحكم والمواعظ، مجلة التواصل، ٨٢/١٠.
- (٣٦). تاريخ المستبصر، ص ٥٥.
- (٣٧). المصدر نفسه، ص ٢٩٦.
- (٣٨). سورة النساء (٤)، آية: ٣٤.
- (٣٩). تاريخ المستبصر، ص ٢.
- (٤٠). سورة الفتح (٤٨)، آية: ٢٤.
- (٤١). ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٣.
- وقيل سميت بكة؛ لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا ألدوا فيها بظلم - أي تدق - ، وبكة موضع البيت ومكة موضع القرية، سميت بذلك لاجتذابها للناس من الأفاق. وقالوا: سميت بكة لأن الأقدام تنبك بعضها بعضاً، أي تزدهم، وسمي البيت العقيق لأنه أعتق من الجبابرة. وهي أم القرى وأم الرُّحْم؛ لأن الرحمة تنزل بها. ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد، (ت: ٣٦٥هـ/٩٧٥م). مختصر كتاب البلدان، مطبعة برييل، (البيد، ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م)، ص ١٦-١٧.
- (٤٢). سورة آل عمران (٣)، آية: ٩٦.
- (٤٣). تاريخ المستبصر، ص ١٣-١٤.
- (٤٤). المصدر نفسه، ص ٣٦، وأضاف: ((يُقال: أن للمسلم فرجه وللنصراني ماله وللمجوسي رئاسته وللبيهودي بطنه)).
- (٤٥). المصدر نفسه، ص ٥٢. راجع أيضاً: الزيلعي، أحمد عمر: مكة وعلاقتها الخارجية، ٣٠١-٤٨٧هـ، منشورات عمادة شؤون المكتبات / جامعة الرياض، الطبعة الأولى، (الرياض، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ص ١٠٧-١٠٨.
- (٤٦). تاريخ المستبصر، ص ٥٦.
- (٤٧). المصدر نفسه، ص ٦٠-٦٢.
- (٤٨). راجع عن البيهتين الشرعيين وهذا الموضوع: ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ٦٠-٦٢. إبراهيم: أشعار الحكم والمواعظ، مجلة التواصل، ٦٥/١٠ - ٦٦.
- (٤٩). الشيخ أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني، (ت: ٤٢١هـ/١٠٣٠م)، الأزمنة والأمكنة، ج ٢، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد الدكن، ١٣٣٢هـ)، ص ١٦٥. راجع أيضاً: الأفغاني، سعيد: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المطبعة الهاشمية، (دمشق، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م)، ص ٢٤٠.
- (٥٠). تاريخ المستبصر، ص ٨٦.
- (٥١). المصدر نفسه، ص ٩٨.
- (٥٢). المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٥.
- (٥٣). راجع للتفاصيل: إبراهيم، د. محمد كريم (الشمري): عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية ٤٧٦-٦٢٧هـ/١٠٨٣-١٢٢٩م، منشورات دار جامعة عدن للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، (عدن، ٢٠٠٤م)، ص ١١٩-١٣٠، راجع أيضاً: إبراهيم: أشعار الحكم والمواعظ، ص ٦٩-٧٠.
- (٥٤). تاريخ المستبصر، ص ١٢٧-١٢٨، راجع أيضاً: إبراهيم: عدن، ص ٣١٥-٣١٦.
- (٥٥). راجع عن تفاصيل نتائج ذلك، ومنها بناء أسوار عدن: ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص ١٢٨. إبراهيم: عدن، ص ٣١٥-٣٢٠، ٣٢١.
- (٥٦). تاريخ المستبصر، ص ١٤٦. راجع أيضاً: إبراهيم: عدن، ص ٢٩٢-٢٩٣، أشعار الحكم والمواعظ، ص ٧٠.
- (٥٧). المصدر نفسه، ص ١٤٨-١٤٩.
- (٥٨). المصدر نفسه، ص ١٥٠، راجع أيضاً: إبراهيم: أشعار الحكم والمواعظ، ص ٧١.
- (٥٩). المصدر نفسه، ص ٢٧١.
- (٦٠). المصدر نفسه، ص ١٩٠.

- (٦١). المصدر نفسه والصفحة. راجع أيضاً : ابراهيم: أشعار الحكم والمواظ ، ص٧٤ .
(٦٢). المصدر نفسه ، ص٢١٣-٢١٤ .
(٦٣). المصدر نفسه ، ص٢٢٩ .
(٦٤). المصدر نفسه ، ص٢٣٥-٢٣٦ .
(٦٥). المصدر نفسه ، ص٢٩٥-٢٩٦ .

Abstract

The Proverbs of the Arabs' speech In the book of : the description of the country of Yemen (Al-mustabsir History) of Ibn Al-Mujawir Al-Baghdadi Al-Naisaboori (dead after 626 A.H;1228 A.D.)

The research concentrates on investigating an important side of heritage which immortalize the proverbs of Arabican in a very important book that is distinguished for its various scientific wealth : linguistic , literary , economic and social. The researcher clarifies the important of this book and the most outstanding researches which he has accomplished through this book .

The research concentrates on tow sides : the first contains samples of the Arabic proverbs which include wisdom and lessons. The proverbs of this side connected with various occasions of tales and stories taken from the immortal heritages of Arabs . The second side is related to the wisdoms and lessons that take the from of sayings with statement of their occasions in which they were triggered. This is going to state the importance of this book through the points of Arabic proverbs found in its text , This is done to document an important parts of the Arabs' heritage and their immortal history.

